المحاضرة (05)

عُنْوَانُ المُحَاضَرَةِ: القصيدة الكلاسيكية

المدةُ: ساعة

الفئةُ المُستهدفةُ: طلبة السنة الثانية ماستر، تخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

القصيدة الكلاسيكية

تمهيد:

كما نعلم جيدا أنّ نهضتنا الأدبية الحديثة قد بدأت تؤتي ثمارها في النصف الثاني من القرن 19م، وهذه الثمار كانت شعرًا لمحمود سامي البارودي، ونثرا لعبد الله فكري.

ولما كانت كل نهضة أدبية لابد وأن تصاحبها نهضة نقدية، ظهر في تلك الفترة ناقد قام ببعث علوم اللغة العربية وطرائق النقد الأدبي التقليدي، كما عُهد عند النقاد القدامى، كان هذا الناقد الشيخ "حسين المرصفي" (ت 1889م)، تلقى العلم بالأزهر، وبلغ من ذكائه واجتهاده أن تولّى التدريس فيه حتى سنة 1871م.

ترك هذا الشيخ ثلاثة كتب: زهرة الرسائل، الكلمات الثمان، الوسيلة الأدبية للعلوم العربية.

الكتاب الأخير هو الذي يهمنا الحديث عنه، يقع في جزءين تزيد صفحاتهما على 900 صفحة من القطع الكبير.

يتضمن كتابه هذا المحاضرات والدروس التي ألقاها على طلبة دار العلوم في السنوات الأولى من إنشائها.

لم يقتصر كتابه هذا على الأدب وروايته، بل شمل جميع علوم اللغة العربية من نحو وصرف وفصاحة وبيان وبديع ومعان، ثم تناول الأدب بفرعيه الشعر والنثر.

استشهد في كتابه النقدي هذا بنماذج شعرية كثيرة، وهذا ينم عن ذوق سليم في الاختيار، كما ينم حديثه عن علوم اللغة عن فقهٍ وتعمقٍ وحافظة جبارة، فضلاً عن حديثه عن رائدي البعث والإحياء الأدبي في عصره: محمود سامي البارودي في الشعر، وعبد الله فكري في النثر.

منهجه النقدي:

أهم ما تحدّث عنه الشيخ في كتابه المنهج الذي رسمه لمعاصريه وتلاميذه، لتجويد إنتاجهم الشعري والنثري، والسمو به إلى مرتبة الأدب العربي القديم، البالغ الروعة والجمال.

مفهوم الشعر عنده:

اهتدى المرصفي بفطرته السليمة إلى تحديد مفهوم للشعرِ، يخالف في بعض جوانبه ما كان سائدًا قديمًا، فمثلا قدامة بن جعر في كتابه الشعر والشعراء عرّف الشعرَ على أنّهُ "الكلام الموزون المقفى"، في حين الشيخ حسين المرصفي بفطرته الأدبية السليمة يقول: "وقولُ العروضيين في حدّ الشعر إنه الكلام الموزون المقفى ليس بحدٍّ لهذا الشعر، باعتبار ما فيه من الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة، فلا جرم أنّ حدّهم ذلك لا يصلح له عندنا، فلابد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية، فنقول: "إنّ الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصّل بأجزاءٍ متفقة في الوزن والروي، مُستقلٌ كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به"

*أشار المرصفي في هذا التعريف إلى خاصية أساسية تُميّزُ الأدب عامة والشعر خاصة عن غيره من الكتابات، وهي التصوير البياني، بدلا من التقرير الجاف.

*يُقرّ الشيخ في تعريفه هذا بوحدة البيت، حيث يرى أنّ للبيت الواحد في القصيدة وحدةً شعريةً مستقلة بذاتها، حيث يقول في مستهل حديثه عن الشعر: "إنه كلام مُفصّلٌ قِطعًا مُتساوية في الوزن، مُتّحدةً في الحرف الأخير من كل قطعة، وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتًا، ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه رويا وقافية، وينفرد كل بيت بإفادته في تركيبه، حتى كأنه كلامٌ وحدهُ مُستقلٌ عما قبلهُ وما بعدهُ"

استدل المرصفي في كتابه بنموذج ناجح في قول الشعر، حيث يتحدث عن الشاعر محمود سامي البارودي، وعن الطريقة التي كوّن بها نفسهُ، وصقل بها ملكته الشعرية، بقوله "هذا الأمير الجليل ذو الشرف الأصيل، والطبع البالغ نقاؤه، والذهن اللامتناهي ذكاؤه، محمود سامي البارودي، لم يقرأ كتابا في فن من فنون العربية، غير أنه لما بلغ سنّ

التعقل وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله، فكان يستمع إلى بعض من له دراية وهو يقرأُ الدواوين، أو يقرأ بحضرته، حتى تصور في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات، حسبما تقتضيه المعاني والتعلقات المختلفة، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن،، ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب، حتى حفظ الكثير منها دون كلفة، واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفها من خسيسها، واقفا على صوابها وخطئها، مدركا ما كان ينبغي وفق مقام الكلام وما لا ينبغي، ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء كأبي فراس والشريف الرضي"

وفي خلاصة كلامنا هذا نستطيع القول أنّ المرصفي في كتابه الويلة الأدبية وجّه الأدبَ توجيهًا صحيحًا، حيث جعل من الأدباء بتوجيهه يبعثون الأدب العربي الناصع عامة، والشعر العربي خاصة.

آليات إجادة نظم الشعر عنده:

-ضرورة الحفظ، فهو يوصي شداة الشعر مثلا بأن يحفظو أكثر ما يستطيعون من الشعر الجزل القديم، مضيفا في دعواه بضرورة نسيان ما حفظوا، حتى لا يضلوا عبيدًا له، وحتى لا ينقلب شعرهم ترقيعا من الذاكرة.

يقول في كتابه "اعلم أنّ لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطا، أولها الحفظ من جنسه؛ أي من جنس الشعر، حتى تنشأ في النفس ملكة يُنسجُ على منوالها، ويتخيّرُ المحفوظ من الحرّ النقي الكثير الأساليب، وهذا المحفوظ المُختار لشعراءٍ من الفحول الإسلاميين، مثل: ابن أبي ربيعة، ذو الرمة، جرير، أبو نواس، البحتري، الشريف الرضي، وأبو فراس الحمداني، وأكثر شعر كتاب الأغاني، والمختار من شعر الجاهلية، وما كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر رديء، ولا يعطيه الرونق إلاّ كثرة المحفوظ، فمن قلّ حفظه أو عُدم لم يكن له شعر، وإنما هو نظم ساقط".

وبالتالي لكي تُستحكم الملكة الشعرية عند أي شاعرٍ يجبُ الامتلاء بالمحفوظ، لينسج الشاعر بعد ذلك شعره على منوال القدامى.

ولتحصيل ملكة الشعر وجب الإكثار من المطالعة الحفظ (اختيار المحفوظ وحفظ الجيد).

بعد الحصول على هذه الملكة لابد من الدربة الطويلة على النظم، حتى تصقل وتُستحكم هذه الملكة.

ثم تناسي المحفوظ، حتى لا يُصبح الشاعر عبدًا لما قام بحفظه.

مفهوم الشعر عند محمود سامي البارودي:

يعدّ البارودي بحق رائد الشعر العربي الحديث، حيث وثب به وثبة عالية لم يكن يحلم بها معاصروه، ففكّهُ من قيوده البديعية وأغراضه الضيقة ووصله بروائعه القديمة وصياغتها المُحكمة.

ربط الشعر بحياته وحياة أمته (التزم بقضايا أمته وشعبه).

فهو حتى وإن قلّد القدماء وحاكاهم في أغراضهم وطريقة عرضهم للموضوعات وفي أسلوبهم وفي معانيهم، فإنه له مع ذلك تجديدًا ملموسًا من حيث التعبير عن شعوره ومواقفه.

نظم الشاعرُ شعرهُ في كل الأغراض من غزل ومديح ووصف وفخر وهجاء ورثاء، مرتسما نهج الشعر العربي القديم، غير أنّ شخصيته كانت واضحة في كل ما نظم (الضابط الشجاع، والثائر على الظُلم، والمغتربُ عن وطنه، والصديق الوفي).

ترك البارودي ديوانَ شعرٍ تزيد عدد أبياته على 5000 آلاف بيت، طُبع في أربعة أجزاء.

عنده كتاب نثري، عُنون بـ"قيد الأوابد"، سجّل فيه خواطره ورسائلهُ بأسلوبٍ مسجوع.

عنده مختارات البارودي، وهي مجموعة انتخبها الشاعر من شعر ثلاثين شاعرا من فحول الشعر العباسي، تبلغ نحو 40 ألف بيت.

مفهوم الشعر عنده:

يقول "الشعر لمعة خيالية، يتألق وميضها في سماوة الفكر،فتنبعثُ أشعتها إلى صحيفة القلب، فيفيض بلآلئها نورًا يتصلُ خيطهُ بأسلة اللسان، فينفثُ بألوانٍ من الحكمة، ينبلج بها الحالك ويهتدي بدليلها السالك، وخير الكلام ما ائتلقت معانيه، وائتلفت ألفاظهُ وكانت سليمة من وصمة التكلف، فهذه صفة الشعر الجيد"

يشتملُ هذا التعريف عدّة موضوعات وخصائص، ارتبطت أساسًا بالشعرِ وقرضهِ.

الخصائص الأولى شكلية، ممثلة في الوزن والرقافية، مفهومه هذا لم ينف الوزن والقافية.

اتصل تعريفهُ هذا بالخيال، في قوله لمعة خيالية، والخيال يُحدّدُ جانبا من الخصائص النوعية للشعر.

نجد الناقد نجيب حداد (ت 1899م) من النقاد الذين أكّدوا على ضرورة الخيال وإعماله في نظم الشعر، يقول "الشعر هو الفن الذي ينقل الفكر من عالم الحس إلى عالم الخيال" (الخيال هنا يرتبط بالعقل، ويسمى بالخيال الحسي)

تعريف البارودي يُحدّدُ مراحل إبداع النص الشعري، وحسبه يمرُّ بثلاث مراحل:

الأولى: ومضة الإبداع في العقل.

الثانية: انتقال أثر الومضة إلى القلب.

الثالثة: تحريك الأداة اللفظية وهي اللسان.

وهذا يعني أنّ عملية الإبداع تمرُّ ضمن مراحل متتابعة: العقل / القلب / اللسان.

وهذا التتابع المرحلي تتولد عنه عملية الإبداع الشعري.

مفهوم الشعر عند حافظ إبراهيم:

عبّر عن رؤيتهِ الخاصة بالشعر في مقدمة ديوانه، بالإضافة للوزن والقافية ناقشَ حافظ إبراهيم قيمة الشعر بالنسبة للإنسان والحياة.

تحدّث حافظ إبراهيم (ت 1932) في مقدمة ديوانه، الذي صدر عام 1901م عن قيمة الشعر ومضمونه، ومما هو جدير بالذكر أنّ شعراء الإحياء أكّدوا على القيمة الروحية للشعر، إذ لم يكن همهم الكبير مقتصرا على الأسلوب وتطوير أغراض الشعر، وإنما كان لديهم الإدراك المعرفي والوعي الفلسفي لارتباط الشعر بالإنسان (الالتزام في الشعر).

يقول مُعرّفًا الشعر: "إنهُ نفثة روحانية تمتزجُ بأجزاء النفوس، ولا تحسُّ به إلاّ النفوس الزكية" وبالتالي فالشعر إحساس روحي.

الملاحظ على هذا التعريف تركيزه على المضمون.

وقد حدّد حافظ إبراهيم الشعرَ بمحورينِ أساسيين، هما: الحكمة / الحقيقة، والتي يُعبّرُ عنهما بفصاحة وبلاغة وخيال وصدق.

يقول في مقدمة ديوانه: "ومبلغُ القولِ فيه (أي الشعرُ) أنهُ ظرفُ الحكمةِ ومسرحُ الخيالِ وخِدرُ البلاغة ووعاءُ الحقيقةِ".

هذا التعريف معناه أنّ الشعرَ إمّا حكمة أو حقيقة يُعبّرُ عنها بأسلوبٍ فصيحٍ بليغٍ المعنى ومُتخيّل.

وبالتالي فالشعر بحسبهِ تعبيرٌ جمالي بلغةٍ فنيةٍ عن معاناة إنسانية.